الكتّاب في العصر العباسي الثاني (٢٤٧هـ-٣٣٤هـ/ ٨٦١م-٩٤٦م)

حسين الكساسبه

قسم التاريخ، جامعة مؤتة، الأردن

ملخص

هذه الدراسة في التاريخ الإداري، تناولت الكتّاب وتطورهم في العصر العباسي الثاني، فالكتّاب هم موظفو أجهزة الدولة، والكتابة اسم عملهم، وقد شكل الكتّاب فئة لها ثقافتها ومكانتها وأهميتها.

بدأت الكتابة في عهد الرسول (ص) واستمرت في التطور في العهود التالية. تنوعت أعمال الكتاب وتعددت أصنافهم، وكان لكل صنف من هؤلاء ثقافة خاصة به. وكانت هناك ثقافة مشتركة عامة تجمعهم، فكانت معارفهم متنوعة وثقافتهم واسعة، كإتقان العربية وآدابها وعلوم الدين وعلم الكلام والتاريخ والأشعار والأخبار والسير؛ لتكون عونا للكاتب في تصريف الأعمال والأحوال. ومن الجدير بالملاحظة أن عائلات معروفة شغل كثير من أفرادها منصب الكتابة.

Abstract

This study deals with questions involving the development of secretaries in the second Abbasid period. The secretaries were the states officials and secretrial work was the name given to their job. The secretaries formed a special class and had their own culture and status. They rose in the Prophet's era and developed during the following period. Many factors contributed to their development. They were appointed in good jobs and became different groups. The secretaries had a wide knowledge and diverse culture. They possessed knowledge of diverse subjects, such as: languages, religious sciences, history, biography, poetry, letters and others. Secretaries formed groups with specialized knowledge and functions. It is worth mentioning that there were families known for producing prominent secretaries.

مقدمة

لم يكن لعرب الحجاز في الجاهلية معرفة بصناعة الكتابة، فكانوا أميين، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم، مع ذلك عرفوا منزلة الكتابة وعدوها أحد الأركان الثلاثة لاعتبار الرجل من الكاملين، ويشير ابن سعد إلى ذلك قائلاً: "الكامل عندهم في الجاهلية وأول الإسلام الذي يعرف الكتابة بالعربية ويحسن العوم والرمي" (١).

وأخذ الإسلام يحض على تعلم الكتابة، وبيّن فضلها وأهميتها، وقد ظهر ذلك في أقوال الرسول (ص) وأعماله، وفي الإشارات الواردة في القرآن الكريم (٢). واستمرت الكتابة بالتطور في عهد الراشدين، ولكن لم يتسع ميدانها ولم تكن أكثر من جمل فصيحة تؤدي المعاني المطلوب تأديتها في غير ما زخرف أو تأنق بحيث تخدم الغرض الذي كان يتصل بالدعوة اتصالاً مباشراً.

وفي خلافة بني أمية، تعددت الحاجات وكثرت المؤسسات، ورافق ذلك ازدهار الكتابة وتنوع أعمال الكتاب، وأخذت تتطور تبعاً للتطور الثقافي والإداري، وللحاجة إليها في أجهزة الدولة المستحدثة واستمر التطور حتى شغل الكاتب في أواخر خلافة بني أمية مكانة مرموقة (٣).

وجاء العباسيون إلى الحكم وشهدت دولتهم تطوراً كبيراً في المجال الثقافي والإداري، ففي عهدهم اتسعت آفاق الفكر، وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية، وترجم إلى العربية الكثير من الكتب الأجنبية، فأضافت جديداً إلى العقول، ووسعت كثيراً من المدارك، التي هي حصيلة العقول المتباينة التفكير، المختلفة الموازين. وفي ظلهم ظهرت مؤسسة الوزارة كوظيفة إدارية واحتل الوزير مكانة مرموقة (٤). وأصبحت وظيفة الكاتب الطريق الأقصر إلى منصب الوزارة (٥). فقد كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذي يوصل الشخص إلى أرفع المناصب. فقد توفر عليها مئات الكتاب الذين يتطلعون إلى الرقي وتسلم الأعمال الإدارية، فكان من يظهر من الكتاب مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذي يعمل فيه، ثم يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشؤونها.

وفي هذا العصر تنوعت موضوعات الرسائل الديوانية، فكانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وعهود الخلفاء لأبنائهم، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم، وقد تفننوا في التحميدات التي تصدر بها الرسائل، وتنسب إلى الرشيد إدخال تعديلات على المكاتبات الرسمية، فأصبحت تصدر بالثناء على الله عز وجل والصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(٦).

تعددت الدواوين في العصر العباسي الثاني واتسعت أعمالها عما كانت عليه سابقاً، وكان ذلك عاملاً مهماً في نشاط الكتابة، إذ اشتغل بها كثيرون، وخصوصاً أنها كانت تعود عليهم بأرزاق كثيرة(٧).

- ١ -

وفيما يلي عرض موجز لابرز كتّاب العصر العباسي الثاني مرتبين على عهود الخلفاء لنبين من خلالهم تطور الكتابة، فمن كتاب الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ-٢٤٧هـ/ ٢٤٦م-٨٦١م) إبراهيم بن العباس الصولي الذي حرر أكثر ما صدر عن المتوكل من رسائل، ومن كتاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، ثم جعله وزيره، وقد احتفظ له الطبري برسالة كُتبت عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر والي بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لشتمه أبا بكر وعمر(٨).

وجاء المنتصر (٢٤٧هـ-٢٤٨هـ/ ٨٦١م-٨٦٢م) واستوزر كاتبه أحمد بن الخصيب(٩)، وكان كاتباً أديباً مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدر عنه، وكان منها: كتاب في الجهاد كتبه سنة ٢٤٨هـ، وكتاب آخر حين خلع المنتصر أخويه المعتز والمؤيد(١٠). وصياغة الكتابين جزلة رصينة، فيها دقة في التعبير خالية من السجع، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة، مما يشهد لابن الخصيب بأنه كاتب مجيد(١١).

يدخل عصر المستعين (٢٤٨هـ-٢٥٢هـ/ ٨٦٢م-٨٦٧م) الخلافة ويتخذ سعيد بن حميد أحد الكتّاب البلغاء على ديوان رسائله، فارسي الأصل كان أبوه حميد من أهل النباهة في بغداد ووجهاً من وجوه المعتزلة، وكان يحسن نظم الشعر وكان الابن سعيد "حافظاً لما يستحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفاً في فنون العلم"(١٢)، وقد لمع اسمه بين الكتاب لأول مرة عند البيعة للمنتصر فقد طلب منه أحمد بن الخصيب وزير المنتصر أن يعمل كتاب البيعة ففعل (١٣) ، ويظل كاتباً لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر ولما ولي الخلافة المستعين جعل رياسة ديوان الرسائل له(١٤)، وبذلك اصبح الكاتب الأول في الدولة الذي تصدر عنه جميع رسائلها الديوانية.

وسرعان ما يتولى المعتز الخلافة (٢٥٢هـ-٢٥٥هـ-٨٦٦م-٨٦٨م) ويستوزر أحمد بن إسرائيل الذي يوصف بأنه " أحد الكتاب الحذاق الأذكياء" و"كان يحفظ وجوه الأموال جميعاً دخلاً وخرجاً على ذهنه"، ويخلف المعتز، المهتدي (٢٥٥هـ-٢٥٦هـ/ ٨٦٨م-٨٦٩م) وكان من أبرز كتابه سعيد بن عبد الملك الذي يقول فيه ابن النديم: " البلغاء الحديثون ثلاثة الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس

الصولي وسعيد بن عبد الملك' (١٦). ومن كتاب المهتدي سليمان بن وهب بن سعيد قال عنه صاحب الفخري 'أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً . . . وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم ' (١٧). ويبقى سليمان بن وهب وزيراً للخليفة المعتمد (٢٥٦هـ-٢٧٩هـ/ ٨٦٩م-٨٩٣م) وكان يكتب بين يديه أبو العباس أحمد بن ثوابه (انظر عنه فيما بعد). ومن كتاب المعتمد الحسن بن مخلد، وأحمد بن صالح بن شيرزاد، قال عنه صاحب الفخري 'كان أحمد كاتباً بليغاً فاضلاً عارفاً بما يلزم مثله معرفته مجيداً في النظم والنثر' ويقول عن عبيد الله بن سليمان بن وهب من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً' (١٨). وزر للخليفة المعتضد (٢٧٩هـ-٢٨٩هـ/ ٨٩٣م-٩٠٢م)فيما بعد، وليس بين أيدينا من رسائله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لعن معاوية بن أبي سفيان(١٩).

ومن كتاب الدواوين البارزين لعهد المقتدر (٢٩٥هـ-٣٢٠هـ/ ٩٠٧م-٩٣٢م) محمد بن جعفر بن ثوابه تولى ديوان الرسائل، وكان في باكورة حياته يكتب بين يدي عبيد الله بن سليمان بن وهب وترقى حتى أصبح من أبرز الكتاب في عهد المقتدر. وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ عام ٣١٢هـ/ ٩٢٤م على ديوان الرسائل وظل يرأسه حتى وفاته سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م(٢٠). وكان وزير المقتدر ابن مقلة كاتباً بارعاً وبليغاً وفيه يقول الصولي 'ما رأيت وزيرا منذ توفي القاسم بن عبيد الله بن سفيان بن وهب أحسن حركة ولا أظرف إشارة ولا أملح خطاً، ولا أكثر حفظاً، ولا أسلط قلماً، ولا أقصر بلاغة ولا أخذ بقلوب الخلفاء من ابن مقلة' (٢١).

يلاحظ أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر الأسلوب الشائع في اللغة،فالرسائل تمتلىء بزخارفه ولآلئه. إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ،ولابد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام. وأخذ السجع يعمم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية. فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً(٢٢).

- ٢ -

بقيت أصناف الكتاب في العصر العباسي الثاني خمسة على ما كانت عليه في العصر العباسي الأول (٢٣). إلا أنه طرأ تغيير على أسمائها وعلى ما ذكره وزير المقتدر ابن مقلة فهي: كاتب خط، وكاتب لفظ ،وكاتب عقد،وكاتب حكم،وكاتب تدبير(٢٤).

فكاتب الخط: هو الوراق والمحرر . وكاتب اللفظ: هو المترسل. وكاتب العقد: هو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل. وكاتب الحكم: هو الذي يكتب للقاضي ونحوه، مما يتولى النظر في

الأحكام. وكاتب التدبير: هو كاتب السلطان أو الوزير (٢٥). ولكل واحد من هؤلاء ثقافة خاصة وتدريب معين.

١- **كاتب الخط:** لا يخلو كاتب الخط أن يكون وراقاً أو محرراً. 'وهما موصوفان بنقل الألفاظ وتصورها، ويحتاجان إلى أن يجمعا مع حلاوة الخط وقوته، وسواد المداد وجودته، وتفقد القلم وإصلاح قطته، إلى جودة التقدير والعلم بمواقع الفصول'(٢٦). ويحتاج المحرر أن يعتني بأدوات الكتابة كالقلم والحبر والورق، وأن يراعي المسافات التي تترك عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله والموازنة بين السطور في بدايتها ونهايتها(٢٧). ثم يحتاج الكاتب بعد هذا إلى مراتب المكاتبين واستحقاق كل واحد منهم من الأدعية والرسم في عناوين الكتب إليهم وأصناف التحرير وما يليق بكل صنف منها من الخطوط(٢٨).

٢- **كاتب اللفظ:** ويحتاج إلى حفظ الكثير من الرسائل والخطب والأمثال والأشعار والأخبار فإن في ذلك كفاية لذوي الأدب (٢٩). ويحتاج إلى التمثل بآداب الأوائل، والاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية، كل ذلك يجعل لغته قوية وكتابته سليمة وتجعله بارع المنطق، جزل الألفاظ، فصيح اللسان، ليس بالهذر في منطقه ولا المتعسف في مقصده(٣٠). وباختصار كان يتمتع كاتب اللفظ بمعرفة كبيرة في علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة(٣١).

٣- **كاتب العقد:** وهو كاتب الحساب، وكتّاب الحساب ثلاثة: كاتب مجلس، وكاتب عامل، وكاتب جيش؛ فيعمم هؤلاء الثلاثة أنهم محتاجون ' إلى أن يكونوا عارفين بالتقدير حتى يعملوا مواقع الجمل والتفصيلات وما ينبغي أن يخرجوه من الرؤوس في التقديرات ... وأن يكونوا محتاطين في ألفاظ حكاياتهم حتى تصح معانيها، ولا يقع عليهم تأول فيها، وأن يكونوا ضابطين لما يشرعون فيه من فنون الحساب حتى لا يقع عليهم خطأ فيه'(٣٢). ويحتاجون من الحساب معرفة الجمع والتفريق والتضعيف والتصريف والنسبة(٣٣).

هذه جملة ما يحتاج إليه كتّاب الحساب الثلاثة. ثم يختص بعد ذلك كل واحد منهم بثقافة ومعرفة دون غيره. فكاتب المجلس يحتاج إلى أن يكون حاذقاً باختصاص الكتب وترتيب أبوابها في المعاملة على ما يقتضيه ترتيب وقوع الجماعات والموافقات لتقابل بذلك عند وروده وأن يكون أيضاً عالماً برسم العبر المحوجة إلى تكميلات، وما يجوز أن يكثر به في ذلك مما يلزم العمل به، وأن يكون عارفاً بأحكام الخراج وما يجب ردّه على العمال من النفقات ومردود الجاري والاحتسابات، وما ينبغي أن يحسب لهم(٣٤).

وأما كاتب العامل فتتركز معارفه على النواحي الحسابية والمالية، ولا حاجة له إلى معرفة كبيرة باللغة والإعراب، ولكن عليه معرفة الألفاظ والمصطلحات التي يتعامل بها كالمساحة ومصطلحاتها وأشكالها والعمليات الحسابية وحال الزرع وتخمين الغلال(٣٥).

ويحتاج كاتب الجيش إلى أن يعرف مع الحساب 'الأطماع (الرواتب) وأوقاتها، والحلي وأحكام أخذها، والأوزان وما يتوفر منها(٣٦)'، كما يلزمه أن يعرف شيات الدواب، وأن يكون خبيراً بأنواع السلاح، عالماً بالفروسية وترتيب الجند في ديوانهم(٣٧).

٤- كاتب الحكم: أمور الأحكام في الإسلام جارية على أربعة أوجه: حكم القضاء، ثم حكم المظالم، ثم حكم الخراج، ثم حكم الشرطة(٣٨).

فينبغي لكاتب القاضي إن يكون عارفاً بالحلال والحرام، وبصيراً بالسنن والأحكام وله معرفة بالناسخ والمنسوخ، والدعاوى والبينات، ويكون له حذق ومهارة بكتب الشروط والإقرارات والمحاضر والسجلات، وله معرفة بالشهود وطبقاتهم وشهادتهم(٣٩).

يشترط في كاتب القاضي صفات منها ' النزاهة والأمانة والعفة والعدالة والعلم بالحلال والحرام والسنة والأحكام وما يوجبه أقسام الكلام '(٤٠).

يتشابه كاتب المظالم مع كاتب القاضي في عمله وأوصافه غير أنه لا يحتاج إلى كتب المحاضر والسجلات، لان صاحبه لا يحكم بشيء يسجل به، وإنما عليه أن يخرج الأيدي الغاصبة(٤١).

أما كاتب الشرطة فيحتاج 'أن يكون عالماً بالجروح والقصاص والعقول والديات'(٤٢).

٥- كاتب التدبير: من أهم الكتّاب مرتبة، وأرفعهم منزلة، لأنه كاتب السلطان الذي يكتب أسراره، ويحضر مجالسه، وهذا الكاتب أحوج 'إلى أن تكون له مشاركة في جميع العلوم بعد إحكامه لما يحتاج إليه في صناعته. وينبغي أن يكون أكثر عمله التواريخ، وأخبار الملوك، والسير والدول، والأمثال، والأشعار، فان الملوك إلى هذه الأنواع من العلم أميل، وهم بها ألهج وقلما يميلون إلى غير ذلك من العلوم'. وينبغي له أن يجري إلى تعلم الأشياء التي يعلم أن رئيسه يميل إليها، ويحرص عليها وأن يتجنب كل ما ينكره وينافره عليها، فان ذلك يحببه إليه. 'وإذا اجتمع الكاتب مع التفنن في المعارف، والعلوم، والعفاف، ونزاهة النفس عن القبائح، فقد تناهى في الفضل، وجاز غاية النبل'(٤٣).

وكان هناك ثقافة عامة للكتّاب يجتمعون عليها بالإضافة إلى الثقافة الخاصة لكل صنف منهم فكانت ثقافتهم واسعة ومعارفهم متنوعة، فعليهم الإلمام بكل علم مثل: الكيميا والطب والنجوم والفلسفة والمنطق. ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب، فقد مضى يقرأ كل ما ترجم ونقل عن الفلاسفة اليونان من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك، حتى شكلت المادة الفارسية السياسة الأخلاقية المترجمة من أهم المؤثرات في رقي الكتابة الديوانية (٤٤). وعلى الكاتب إتقان طائفة من المعارف وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلوم الدين، وعلم الكلام والتاريخ، وأنواع أخرى من المعرفة، من رسائل المتقدمين، ومن الأشعار والأخبار والسير لتكون عوناً للكاتب(٤٥). وخير من استوعب هذه المؤهلات الرسالة العذراء(٤٦) لإبراهيم بن المدبر(ت٢٧٩/ ٨٩٢) أحد مشاهير كتّاب القرن الثالث(٤٧).

اشتملت الرسالة العذراء على ثقافة الكتّاب وصفاتهم وزيهم، وأدوات الكتابة والإلمام بها، وما قيل في الكتابة وأمور أخرى. وقد وضعت هذه الرسالة دليلاً للكتّاب في عهده(٤٨).

تعتبر هذه الرسالة أثمن ما قدم ابن المدبر للقراء والمتأدبين، وتحتاج هذه الرسالة إلى وقفة طويلة ومرد ذلك إلى طولها-مقارنة مع رسائل الكتّاب- ووفرة ما ضمت من أفكار ومعان وأساليب بلاغية وإرشادات إلى الكتّاب والنقاد. وما يلفت النظر في هذه الرسالة عنوانها، فلماذا سماها مؤلفها 'العذراء'؟ وكلمة عذراء ترادف كلمة بكر، والمعنى الذي تفيده العذرة والبكارة هنا هو الجدة المطلقة في الغرض والمعنى والمحتوى والهدف والأسلوب، ولم يلمس في كل الرسالة شيئاً كثيراً من هذه البكارة. وكان الظن أن الكاتب قد قصد من صفة العذرة التي خلعها على رسالته شيئاً آخر غير العذرة بمعناها الشائع، وبقي السؤال معلقاً حتى أجاب عليه الكاتب نفسه في آخر رسالته وبين أن العذرة التي قصدها إنما هي بكارة الفكرة والمقصد، فقد أنهى رسالته الطويلة بقوله 'وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين، ولا لمستها اكف المنوهين، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين. . . . '(٤٩).

يرى ابن المدبر أن ' الكاتبُ المستحق اسم الكتابة، والبليغ المحكوم بالبلاغة، من إذا حاول صنعة كتّاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها، وظهرت من معاونها، وبدرت من مواطنها، عن غير استكراه ولا اغتصاب'.

ويضيف 'واعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب

الحكماء، فان أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصبح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك، واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار، والسير والأسماء، ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك.

وانظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم، وسيرهم ومكايدهم في حروبهم، بعد أن تتوسط في علم النحو والتعريف واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب، تمهر في نزع آي القرآن في مواضعها، واجتلاب الأمثال في أماكنها، واختراع الألفاظ الجزلة، وقرض الشعر الجيد، وعلم العروض... وإن شدوت من هذه العلوم ما لا يشغله محله، وتنقبت من هذه الفنون ما تستعين به على إطالة قلمك، وتقديم أود بيانك'(٥٠).

ويبدو أن الكتّاب لم يتقيدوا بنصائح وتوجيهات كبار الكتاب. فركزوا في القرن الثالث الهجري أحيانا على الثقافات الأجنبية والمعارف المترجمة عن الأقوام الأخرى، وأهملوا في الغالب العلوم الدينية والثقافة العربية الإسلامية، لذا انتقدهم المعاصرون لهم مثل الجاحظ الذي ألف فيهم رسالة خاصة سماها'ذم الكتّاب'. بين فيها ثقافة الكتاب السطحية في العلوم العربية والإسلامية وعدم اهتمام الكتاب بالثقافة الدينية و'لم ير كاتب قط جعل القرآن سميرة، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده...'(٥١).

-٤-

وربما يثار سؤال هل كان الجاحظ صادقاً في وصفه للكتّاب أم مدفوعاً بنزعات أخرى؟ فمن المعروف ان الجاحظ أديب بارع وكاتب ذكي يرصد الواقع ليبين الجانب الآخر، كما أنه من المناهضين بحماس للحركة الشعوبية التي نشطت في أيامه، ويرى أن بعض الكتّاب من أدواتها؛ لأنهم من غير العرب ومن المهتمين بالتراث الفارسي على حساب الثقافة العربية(٥٢).

لقد ظهر في العصر العباسي الثاني أسر غير عربية شغل أفراد عديدون منها وظيفة الكتابة ومن الأسر التي تمسكت بأسباب الثقافة وتعلقت بوجوه البلاغة والآداب أسرة بني المدبر وأسرة بني وهب وأسرة بني ثوابة.

وإذا عرضنا لبني المدبر وجدنا المعروف لدينا منهم اخوة ثلاثة ترددت أسماؤهم وفي فترة هامة من حياة الدولة العباسية، علت مكانتهم فيها وخطر شأنهم وتولوا مراكز متعددة انتهت ببعضهم إلى منصب الوزارة.

أما الأخوة الثلاثة فهم إبراهيم وأحمد ومحمد، وهم جميعاً شعراء بلغاء متمرسون كما وصفهم ابن النديم(٥٣). على أننا لم نجد لمحمد كثيراً من الأخبار على عكس إبراهيم وأحمد، فإبراهيم ولي كثيراً من الولايات وتتوجت مساعيه في سلم العلا بكرسي الوزارة حيث تولى الوزارة للمعتمد(٥٤). وكان إبراهيم ذا باع عريض في الشعر والنثر ومن أشهر أعماله الرسالة العذراء(٥٥).

وأسرة بني وهب واحدة من الأسر العريقة التي احتلت مكانة مرموقة في السياسة والأدب وقد عبر عن ذلك ابن الطقطقي بقوله 'كان بنو وهب من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم وكانت دولتهم ناضرة، وأيامهم مشرقة، والأدب في زمانهم قائم المواسم، والكرم واضح المعالم'(٥٦).

لمع عدد من أفراد هذه الأسرة في السياسة والأدب وتسلموا الوزارة بالتتابع ابناً عن والد وحفيداً عن جد. فشغل خمسة منهم منصب الوزارة وهم: سليمان بن وهب وزر للمهتدي والمعتمد، وعبيد الله بن سليمان تولى الوزارة بعد أبيه للمعتمد ثم للمعتضد ثم للمكتفي، والحسين بن القاسم ولي الوزارة للمقتدر، ومحمد بن القاسم ولي الوزارة للقاهر(٥٧). أي أنهم تقلبوا في منصب الوزارة من سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م وهي السنة التي ولي فيها سليمان الوزارة للمهتدي حتى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م وهي السنة التي مات فيها محمد بن القاسم بن عبيد الله وكان يلي الوزارة للقاهر. وفي مقدمة أعلام الأسرة غير ما ذكرنا أحمد بن سليمان بن وهب الكاتب الشاعر.

كانت هذه الأسرة في قرية من أعمال واسط، وكانوا نصارى ثم أسلموا وخدموا في الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت إليه(٥٨). كان الحسن بن وهب 'شاعراً بليغاً مترسلاً فصيحاً، وله ديوان رسائل'. قلد ديوان الرسائل في عهد المعتصم(٥٩). ومنهم سليمان الذي قال عنه صاحب الفخري بأنه 'أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابه في الدروج والدستور، وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم'(٦٠).

ويترك سليمان ولدين لامعين أديبين، ومن المصادفات أن يكون أحدهما ذا شهرة في الكتابة والأدب وأن يكون الآخر ذا مكانة في السياسة والوزارة، تماما كما حدث له ولأخيه، فلقد كان سليمان رجل سياسة، وكان أخوه الحسن رجل أدب، وأبناء سليمان هما أحمد وعبيد الله. ومن وجوه الشبه بين أحمد وعمه الحسن شيء كثير، فكلاهما قد اهتم بالأدب أكثر من اهتمامه بالسياسة، وكلاهما صاحب شعر رقيق وترسل بليغ(٦١).

وهذه أسرة أخرى حملت الفضل وجمعت أسباب الثقافة وعاش أفرادها في محراب ديوان الرسائل. إنّها أسرة بني ثوابة بن يونس التي ظل أفرادها يكتبون للدولة العباسية زهاء قرن من

الزمان. أول اسم لمع من أفرادها أبو العباس أحمد بن ثوابة، وكان ناضج القلم في عهد الخليفة المستعين سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وقد توفي أبو العباس سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م(٦٢). ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد وكان يكتب للمعتضد، ومنهم أبو الحسين جعفر بن محمد وكان يتولى ديوان الرسائل في أيام الوزير عبيد الله بن سليمان. وآخرهم أبو عبد الله أحمد بن محمد الذي تولى ديوان الرسائل أيام المقتدر وظل يتولاه زهاء سبع وثلاثين سنة حتى توفي سنة٣٤٩هـ/ ٩٦٠م(٦٣).

بقي أن نقول إن جد هذه الأسرة يونس كان حجّاماً، والحجامة مهنة كانت تعتبر مهينة بمعايير تلك الأيام، لكن الكتابة رفعتهم وصاروا يحتلون مكاناً مرموقاً بين صفوف الكتّاب. وكان بنو ثوابة من النصارى الذين أسلموا طائعين (٦٤). ومهما يكن موقف الجاحظ من طبقة الكتّاب فان كلامه يصدق عليهم، فقد أهملوا العلوم العربية والإسلامية والتفتوا إلى المعارف الحديثة في عصرهم وخاصة المنبثقة من الثقافة الفارسية يؤكد ذلك ما ألف للكتّاب من الكتب. فقد رأى ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) أن طائفة من الكتّاب 'قد شغفت بالنظر في النجوم والمنطق و الفلسفة، وعرفت الكون والفساد... والكيفية والكمية والجوهر...'(٦٥). وأهملوا النظر في اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه 'أدب الكاتب' ليوضع ما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء وثقافة عربية أي انه جعل كتابه مرجعاً في المعرفة ومرشداً في تقويم اللسان واليد، وجعله يشتمل على فنون العلم وصنوف الأدب والمعرفة التي يحتاج إليها الكاتب.

ويبدو أن نظام الكتابة قد اتسع نطاقه وتشعب، وأتاح لكثير ممن أغفل التأدب أن ينظم إلى طبقة الكتّاب، دون أن يكون هؤلاء على قدر من الثقافة أو حظ من العلوم كبير. إذ كانت همة الكتّاب لا تعدوا أن يحسن الخط ويقيم حروف الكتابة. وقد عرّض بهم ابن قتيبة وسخر منهم لعجزهم وقصورهم وقال: 'فأبعد غايات الكاتب أن يكون حسن الخط قويم الحروف'(٦٦). حتى إذا صار الكاتب في هذه المرتبة، زها بنفسه وأدركه العجب والغرور وتظاهر بمظهر العلماء مما حث الجاحظ فكتب رسالته سالفة الذكر 'ذم الكتّاب' ومما حدا بابن قتيبة إلى محاولة إصلاحهم، فوضع هذا الكتاب وألف بعده الصولي (ت٣٣٥هـ/ ٩٤٦) كتاب 'أدب الكتّاب'(٦٧)وانتقد ابن قتيبة بالتقصير في كتابه وتوسع هو في مسائل لم يتعرض لها ابن قتيبة، فعرض لحسن الخط والدواة والقلم، وترتيب الكتاب وطيه، والدعاء في المكاتبات والدواوين ووجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال. وألف ابن وهب (ت٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) كتابه 'البرهان في وجوه البيان' (٦٨) من أجل تأهيل الكتّاب، وينكشف في هذه المؤلفات ما كان يطلب من الكتّاب معرفته والإلمام به: من لغة وإملاء ونحو وتاريخ وبيان وشعر وفقه، ومن معلومات عملية تمتد من بري القلم إلى تقسيم الإرث، أو مساحة الأرض، أو صيغة العقود.

ومن مؤهلات الكتابة العامة حسن الخط وجودته، ويرى ابن المدبر أن الخط 'لسان اليد ورسول الضمير، ودليل الإرادة، والناطق عن الخواطر، وسفير العقول، ووحي الفكر، وسلاح المعرفة، ومحادثة الأخلاء على التنائي، وأنس الأخوان عند الفرقة، ومستودع الأسرار، وديوان الأمور، وترجمان القلوب، والمعبر عن النفوس.... والمخاطب عن الناصت، والمجادل عن الساكت، والمفصح عن الأبكم، والمتكلم عن الأخرس، الذي تشهد له آثاره بفضائله، وأخبار بمناقبه'(٦٩). وقد بين قدامة بن جعفر كيفية إجادة الخط، فقال 'لا بد من استعمال الحروف على حقائقها وأصول أشكالها، كاستعمال المعهود من الكلام المصطلح عليه من سائر الناس وإلا يمد الحروف التي لم تجر العادة بمدها' فان 'المد في الخط في غير موضعها لحن في الخط'(٧٠).

-٥-

وفي الختام كون الكتّاب فئة ذات ثقافة واسعة ومعارف متعددة وآداب مميزة جعلتهم أصحاب مكانة مرموقة، وفي ذلك يقول ابن المدبر ينبغي أن 'يكون الكاتب صحيح القريحة، حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم، حسن القامة، بعيداً من الفدامة، خفيف الروح، حاذق الحس، محنكاً بالتجربة... لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتّاب طول القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم، وكثافة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وملاحة الزي...'(٧١). ويرى ابن مماتي أن يكون الكاتب 'صادقاً أميناً فيما يستكفاه، حاد الذهن قوي النفس، حاضر الحس، جيد الحدس، محباً للشكر.... حلو اللسان يعامل الناس بالحق، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق... لا يقبل هدية. حسن الهيئة وفخامة الحلية' (٧٢).

الحواشي

١- محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ٨ج، دار صادر، بيروت ١٩٥٨، ٣/ ٥٤٢ وسيشار إليه فيما بعد ابن سعد.

٢- أنظر سورة العلق، آية ١-٥؛ سورة نون، آية ١؛ سورة البروج، آية٢١, ٢٢؛ سورة الأعلى، آية ١٨, ١٩؛ ابن سعد، ٢/ ٢٢؛ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ط٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٢٩.

٣- محمد بن علي طباطبا بن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر بيروت ١٩٦٦، ص١٦٣، سيشار إليه فيما بعد، ابن الطقطقي؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشى، ١٤ج، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢، ١/ ٤٣ سيشار إليه فيما بعد، القلقشندي، صبح، لمزيد من المعلومات عن الكتاب في صدر الإسلام انظر حسين الكساسبه "الكتّاب في صدر الإسلام" مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م٢٣، ع٢, ١٩٩٦، ص٣٠٩-٣١٨.

٤- عن نشأة الوزارة في العصر العباسي انظر أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة١٩٦٠؛ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٨٠، ص٨٤، ٨٦، سيشار إليه فيما بعد الجهشياري، ؛ ابن الطقطقي، ١٥٣-١٥٥؛ أبو الحسن علي بن الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ج، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٥، ٣/ ٢٧٠؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، المكتبة العصرية، بغداد ١٩٣٨، ص٢٩٣.

٥- وقع عمرو بن مسعدة على ورقة رفعت إلى جعفر بن يحيى البرمكي بتوقيع عمرو، فضرب يحيى بيده على ظهر عمرو وقال: "أي وزير في جلدك"، انظر شمس الدين بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ٨ج، دار صادر، بيروت١٩٧٨, ٣/ ٤٧٦.

٦- الجهشياري، ص١٧٧؛ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١، ص٤٠، سيشار إليه فيما بعد الصولي، أدب.

٧- شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، ط٦، دار المعارف، القاهرة١٩٧٣، ص٥٥.

٨- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ٦٠-١٩٩٠، ٩/ ٢٠٠ سيشار إليه فيما بعد، الطبري.

٩- ابن الطقطقي ،٢٣٩؛ ابن عبد ربه ٤/ ٢١٩.

١٠- الطبري، تاريخ ٩/ ٢٤١، ٢٤٧.

١١- شوقي ضيف، العباسي الثاني ٥٥٢.

١٢- المسعودي، مروج ٤/ ٦١.

١٣- الطبري، تاريخ ٩/ ٢٣٥.

١٤- المصدر نفسه ٩/ ٢٦٤.

١٥- ابن الطقطقي ٢٤٤-٢٤٥.

١٦- ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص١٨٨

١٧- ابن الطقطقي، ٢٤٧.

١٨- المصدر نفسه، ٢٥١، ٢٥٤ وانظر الصولي، أدب الكتاب ٥٩، ٨٥، ١٥٠، ١٥٥، ٢٣٤ ميخائيل عواد، نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، بيروت ١٩٦٤، ص٨٨.

١٩- شوقي ضيف، العباسي الثاني٥٥٦.

٢٠- المرجع نفسه ٥٦١.

٢١- ابن تغري بردي ٣/ ٢٦٨

٢٢- شوقي ضيف، العباسي الثاني ٥٥٨، ٥٦٢.

٢٣- المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي ٥ج، بيروت ١٩٧١، ج٨، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٣٠، ٢/ ٣٠٩، سيشار إليه فيما بعد، التنوخي، الفرج؛ ابن عبد ربه ٤/ ٢٢٩، لمزيد من المعلومات عن أصناف الكتاب في العصر العباسي الأول أنظر حسين الكساسبة، المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية، المطبعة الوطنية، عمان ١٩٩٣، ص١٥٦-١٦٣.

٢٤- اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط١، بغداد١٩٦٧، سيشار إليه فيما بعد، ابن وهب، ص٣١٥؛ ابن السيد البطليوسي، الإقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقاء وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة ١٩٨١، ص١٣٧.

٢٥- البطليوسي ١٣٧ .

٢٦- ابن وهب ٣١٦.

٢٧- المصدر نفسه ٣١٧؛ البطليوسي ١٣٨-١٣٩ .

٢٨-ابن وهب ٣٣٣ .

٢٩- المصدر نفسه ٣٥٠؛ البطليوسي ١٣٩ .

٣٠- ابن وهب ٣٥١.

٣١- انظر البلاذري، أنساب ط١، ج١ص٢٠٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٨ج، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت١٩٤٠، ٤/ ٢٢٩ سيشار إليه فيما بعد، ابن عبد ربه؛ إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوئ، دار صادر، ودار بيروت، بيروت١٩٦٠، ص٤١٨، سيشار إليه فيما بعد، البيهقي، المحاسن.

٣٢- ابن وهب٣٥٤.

٣٣- البطليوسي ١٤٢ .

٣٤- ابن وهب،٣٥٧-٣٥٨؛ البطليوسي ١٤٣ .

٣٥- ابن وهب ٣٥٩؛ ابن عبد ربه ٤/ ٢٣٠، العقد الفريد، ٨ج، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت١٩٤٠، ٤/ ٢٢٩ سيشار إليه فيما بعد، ابن عبد ربه؛ أبو الوفاء البوزجاني، المنازل السبع، تحقيق أحمد سعيدان، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧١، ص٢٠٥، ٢٣٤، ٢٤٧؛ أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المسالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، بيروت ١٩٧٨، ص١٦٠.

٣٦- ابن وهب ٣٦٣؛ ابن عبد ربه ٤/ ٢٣٠.

٣٧- البيهقي٤١٨، التنوخي، الفرج٣/ ٣٠٩؛ ابن الربيع، ص١٥٩ ابن الازرق ١/ ٢٠٤, ٢٠٥.

٣٨- ابن وهب ٣٦٩؛ البطليوسي ١٥١ .

٣٩- التنوخي، ٣/ ٣٠٩؛ ابن عبد ربه ٤/ ٢٣٠؛ ابراهيم الصابي، المختار من رسائل الصابيء، تنقيح شكيب ارسلان، دار النهضة، بيروت د.ت، ص ١٧٧-٢١٤؛ ابن أبي الربيع ١٦٠-١٦١ .

٤٠- ابن وهب ٣٧٠.

٤١- البطليوسي ١٥٥.

٤٢- ابن عبد ربه ٤/ ٢٣٠؛ قارن مع التنوخي، الفرج ٣/ ٣٠٩.

٤٣- ابن وهب ٤٠١؛ البطليوسي ١٦٠.

٤٤- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط٨، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ص٤٦٦-٤٦٧.

٤٥- الجهشياري، ص٤٧؛ ابن عبد ربه، ٤/ ٢٢٨.

٤٦- إبراهيم بن المدبر، الرسالة العذراء، تحقيق زكي مبارك ط١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة١٩٣١، سيشار إليه فيما بعد ابن المدبر.

٤٧- انظر فيما بعد: مشاهير الكتّاب في العصر العباسي.

٤٨- انظر الرسالة ص٥-٦، '...سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكله سرده، وحسن افتتاحه وختمه وانتهاء فصوله، واعتدال وصوله، وسلامتهما من الزلل...ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبليغ مسلحاً له معاني البلاغة في اشارته واستعارته، وإلى أي من أدواته هو أحوج، وبأي آلاته هو أعمل ... وأنا راسم لك... من ذلك ما يجمع أكثر شرائك وبعيد عن جملة سؤالك وان طولت في الكتاب...'

٤٩- ابن المدبر، ص٤٨.

٥٠- المصدر نفسه ص٧-٨.

٥١- الجاحظ، رسائل ٢/ ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.

٥٢- يقول الجاحظ: ' ان عامة من ارتاب بالإسلام انما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدرة'. (الحيوان ٧/ ٢٢٠).

وعن الشعوبية والزندقة انظر: عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية؛ حسين عطوان، الزندقة والشعوبية؛ أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق ١٩٨٠-١٩٨١، ص ١٥٤-١٦٣.

٥٤-ابن النديم ، ص١٧٨؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد رفاعي ٢٠ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، ١٠/ ٢٩٢. سيشار إليه فيما بعد، ياقوت، معجم الأدباء؛ نبيه محمد حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكة المكرمة ١٩٨٦، ص٢٥٣.

٥٥- تم الحديث عنها أنظر ثقافة الكتّاب.

٥٦- ابن الطقطقي، ص٢٤٩.

٥٧- انظر، حسام السامرائي، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة(٢٤٧-٣٣٤)، مكتبة دار الفتح، دمشق١٩٧١، ص١٨٥-١٩٠.

٥٨- ابن الطقطقي، ص٢٤٧.

٥٩-ابن خلكان ٢/ ٤١٥.

٦٠- ابن الطقطقي، ص٢٤٧.

٦١-مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة، ص ٤٧٩.

٦٢- المرجع نفسه، ص١٩١.

٦٣-ابن النديم، ص١٨٧, ١٨٨.

٦٤-مصطفى الشكعة، الأدب، ص٤٩٥.

٦٥- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٦٣، ص٣، سيشار إليه فيما بعد ابن قتيبة، أدب.

٦٦- المصدر نفسه ص٣.

٦٧-أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١، سيشار إليه فيما بعد الصولي، أدب.

٦٨-اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، ط١، بغداد ١٩٦٧، سيشار إليه فيما بعد، ابن وهب.

٦٩-ابن المدبر ٤٢.

٧٠- قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية،

القاهرة ١٩٣٣، سيشار إليه فيما بعد ، قدامة، نقد.

٧١- ابن المدبر، ص٨.

٧٢- اسعد بن مماتي، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر ١٩٤٣، ص٦٦.